الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: النص الأدبي الحديث

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات لغوية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة السادسة: التجديد الشعري في المغرب

يمر الشعر المغربي كما هو الحال في جميع الأمم، بتجارب متعددة ومنوعة، وسنجد الشعراء يمارسون تجاربهم في ظل التحول في المذاهب الفكرية كالرومانسية والواقعية وغيرها، وفي الارتباط بقضايا المجتمع المغربي والعالم العربي، وهم يتأثرون عن طريق الاتصال المباشر أو الترجمة بالتيارات الشرقية والغربية، وقد يحاكون هذا الشاعر وذاك من المشرق العربي أو أوروبا أو أمريكا اللاتينية، وتتفاوت حظوظهم في التمثيل والقدرة على استغلال ما في التاريخ أو الأساطير أو الواقع من دلالات موحية ورموز مشعة، ومن الشعراء الذين عرفوا بتموقعهم بين المشرق والمغرب نجد الشابي الذي كان عضوا في جماعة أبولو وفي نفس الوقت يبقى انتماؤه الأصلي إلى بلاده تونس.

والشعر الجزائري كان قليل التأثر بالمذاهب الأدبية الصرفة، ميالا إلى الاعتدال والحذر في اعتناق كل شيء غير ديني وغير اصلاحي، ولذلك لم تنجح الرومانتيكية في الجزائر بالرغم من وجودها في الشعر الفرنسي وفي شعر الشابي في تونس. وليس معنى هذا أن الرومانتيكية لم تدخل الجزائر على الاطلاق؛ ولكن معناه أن الذين أرادوا الانتفاع بها مثل الطاهر البشوشي وجلول بدوي لم يصلوا إلى شيء لأن الظروف الاجتماعية وقفت حائلا، ويبدوا أن محمد العيد بالخصوص قد تأثر بجبران وفلسفته إلى حد كبير في قصائده التالية: هيجت وجدي، يا ليل، يا قلب، وليت نحوك وجهي.

يعتبر الطاهر جلواح هو رائد التجديد الشعري أو الرومانسي في الجزائر؛ وذلك لغلبة النزعة التشاؤمية على قصائده التي كانت في معظمها حديث عن الأحزان والآلام، ومن قصائده الوجدانية نذكر قصيدة كم بات حولك من فؤاد دامي:

كم بـــــــــــــــــــــــــات حولك من فـــــــــــــــــــــؤاد دامي يشكو إليك كوامـــن الآلام

يا راقص الأمواج في حضن الصبـــــــــــــــــــــــــا والليل ساج والورى بمنـــــــــام

لم يا بق لي يا سين في ذي الكون من خذن يصانعني ولو بكلام

صـــــــــــــــــد الرفـــــــــــــاق جميعهم لمــــــــــــــــــا

رأو   ألا بقاء لشـــــروتي وحطامــــــي

يناجي الشاعر هنا نهر السين ويبثه آلامه ومعاناته بسبب الغربة والوحدة التي يعيشها، فسيطرت غلى القصيدة ألفاظ توحي بكم كبير من الحزن، الذي لم يجد مهربا منه إلا للطبيعة التي تجسدت في نهر السين الذي أصبح بمثابة الخليل الذي يسمع نجوى صاحبه ليخفف عنه ويشفي نفسه الجريحة، ومن حقل الطبيعة ظهر كذلك الليل الذي كان في سكونه وظلامه معادلا موضوعيا للحزن والألم.

ومن النماذج التجديدية في الشعر الجزائري نأخذ مثالا من قصائد محمد العيد آل الخليفة التي ظهر فيها التجديد على المستوى المضموني، من خلال ما يعرف بالشعر التمثيلي وهي قصيدة أو مسرحية بلال بن رباح، هذه الأخيرة ضمت حوارا سرديا شعريا شيقا يعالج معنى الصبر وقوة اليقين بالله، يقول في مقطع من مقاطعها:

لو أني كنـــــــــــــــت حرا   صدعت بالدين صدعا

كتمت ديني كتما   لم أدخر فيه وسعـــــــــــــــــــــــــــــــــــا

لو يعلم القوم أنـــــي   عفت الطواغيت جمعـــــــــــــا

ودنت بالله ربـــــــــــــــــــــــــا   ودينه السمـــــــــــــــــــح شرحـــــــــــــــــا

لأوجعوني ضربـــــــــــــــــــــا   وأوسعـــــــــــــــــــــــــــــــــــــوني

قرعـــــــــــــــــــــــا

تضم هذه الأبيات حوارا داخليا (مونولوج) يطالعنا فيه الشاعر بالصراع بين الحرية والعبودية، بين القوة والضعف، لكن محمد العيد لم يكتف بهذا النوع من الحوارات لمعالجة القضايا التي يبتغيها، فعززها بحوارات ثنائية تدور بين عديد من الشخصيات كالحوار الذي دار بين بلال بن رباح وأمية.

من غير الممكن أن نتحدث عن التجديد الشعري في المغرب وعن النزعة الوجدانية دون أن نعود إلى الاسهامات الشعرية القيمة للشاعر التونسي أبو القاسم الشابي، وذلك لاتصاله واحتكاكه المباشر بالتجديد الشعري في المشرق والمغرب؛ وقد تناولت أشعاره موضوعات الحب والوطن التي تجلت وتبينت فيها نزعاته التجديدية من لجوء إلى الطبيعة وإعلاء من شأن الذات وانطباع عام عنوانه الألم والحزن.

يقول فيه قصيدته في سكون الليل:

أيها الليل الكئيـــــــــــــــب   أيها الليل الغريـــــــــــــــب

مـــــــــــــــن وراء الهـــــــــــــــــــــــول   من نقاب الظلمات

في خلاياك تـــــــــراءت لي أحزان الحيـــــــــــــــــــــاة

ما أنا أرنـــــــــــو فألفـــــــــــــي ك كجبـــــــــــار حطيم

ساكنا جللك الحزن وأضنـــــــــــاك الوجـــــــوم

في هدا المقطع تتبين لنا نفسية الشاعر الحزينة التي أسقطها على مظهر من مظاهر الطبيعة، وهو الليل الذي يعتبر معادلا موضوعيا للأحزان والآلام، ومن الناحية الشكلية يتبين بـــأن الشعر اعتمد خاصية التنويع في حرف الروي (حرف التاء، وحرف الميم).

ومن شعراء المغرب الأقصى الذين استغرقتهم الرومانسية نجد عبد الكريم بن ثابت الذي شغف بالطبيعة حبا فكان ينتقل بين بين المرتفعات والمروج ومسايل المياه بفاس، وهذا الجو كان يكتب الشعر الذي مثل هواية له يصور من خلالها مشاعره وتأملاته، حتى أن كتاباته كان يغلب عليها ما غلب على رواد مدرسة أبولو كإبراهيم ناجي وعلي محمود طه.

لقد كان شعر عبد الكريم بن ثابت مناجاة للذات تستدعي التجسيم والتشبيه والتمثيل والرمز، وهو ما يبلور فلسفة الحياة عنده حتى يتداخل التفكير والتصوير، ويصبح سباق الوحدات التصويرية مرتبطا بتساؤلات الشاعر التي تأتي إجاباتها من الظواهر الطبيعية والكائنات حوله، وجاءت جزئيات الصورة وكأنها وسيلة من وسائل هذه الشاعرية المتأملة في النفس، والمتسائلة عن أسرار الوجود والحياة. يقول الشاعر في قصيدة قيد:

أتراه في يديا أم ترى في قدميا

ذلك القيد الذي يضحك مني وعليا

ودموعي كلما أرسلتها من مقلتيا

شرب الدمع و لم يروه دمعي ريا

أين ذاك القيد أين؟

أرتاه اليوم عين؟

***

آه من سر خفي مبهم مثل الضباب

آه لو يسمعني الآن وقد حم المصاب

أنا في الدمع غريق وهو في الصمت مذاب

بح صوتي وأنا أسأله بعض الجواب

أين ذاك القيد أين؟

أتراه اليوم عين؟

يتساءل الشاعر بينه وبين نفسه عن القيد، والصور تتداعى مع هذا السياق والسؤال يتصل ويلح في تأملات وتساؤلات فلسفية حول مأساة الوجود، فهو يوجه الطاقة المحدودة العاجزة للإنسان ممثلة في القيد الذي يحد من نمو شخصيته وإشباع رغباته وتحقيق إرادته. وقد أدرك الشاعر أن طبيعة موسيقى الشعر تتجاوز العروض والقافية؛ فاستجاب لحركة التجديد عبر تطويع موسيقى الشعر لمقتضيات التعبير الوجداني إلى حد الخروج عن عمود الشعر وهو ما ظهر في المقطع السابق.

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- ناصر بركة: محاضرات في النص الأدبي الحديث.
- عبد الحميد يونس وفتحي حسن المصري: في الأدب المغربي المعاصر.
- علي الأطرش: النص الأدبي الحديث.
- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري.